

* هانی عواد

الفكر الاتصالي: من التأسيس إلى منعطف الألفية الثالثة

الكتاب :	الفكر الاتصالي: من التأسيس إلى منعطف الألفية الثالثة
الكاتب :	بيرنار مييج
ترجمة :	أحمد القصوار
تاريخ النشر :	٢٠١١
الناشر :	دار توبقال للنشر - الدار البيضاء
عدد الصفحات:	١٠١

 يرتكز المهم الأساس لهذا الكتاب على محاولة لم شمل العدة المنهجية التي تراكمت على مدى ما يقارب السنة عقود لمناقشة موضوع الاتصال- الإعلام، أو بالأحرى التفتيش عن «نظرية الإعلام» في التراث المعرفي الذي أنتج حول وسائل الإعلام منذ انتقلت هذه لتأخذ مركزاً أساساً في إعادة إنتاج الثيني السياسي والاجتماعي؛ أي منذ الحرب العالمية الثانية.

يفتح مييج دراسته بفصل يتناول ما يصفه بـ«التيارات المؤسسة» في الفكر الاتصالي،

أولاً النموذج السيربرنطيقي، وثانياً النموذج التجريبي- الوظيفي، وثالثاً المنهج البنوي- اللساني. ومع أن المؤلف نفسه هو الذي اقترح هذا التصنيف، فهو لا يلتزم بأصول التمييز التي خطّها بنفسه، فكلّ هذه التيارات التي سادت عقديّ الخمسينيات والستينيات ولدت بنوية، وتبحث عن «قوانين تحكم الكلّ انطلاقاً من عناصره، ومن أنواع التعارض المعهودة (شكل / عمق)» (ص ١٧ بتصرّف)؛ فهي تعain آثار الاتصال كما يعاين الطبيب مريضه، وباستثناء المنهج اللساني

* باحث في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، وسكرتير تحرير دورية «عمران» للعلوم الاجتماعية والإنسانية.

الأساسية في الاتصال ليست هي الخطابات، وإنما الوسائل ذاتها» (ص ٣٧)، وهو ما يعني فصل الوسيط من حيث هو أداة عن الرسالة الموجهة. وما فعله ماكلوهان ليس أكثر من سحب أحد مناهج النقد الأدبي الحديثة ليتم التعامل مع الميديا على أنها «قصيدة»، لا يمكن فهمها إلا من خلال نظامها الداخلي الناظم لمخرجاتها^(١)، ولكن حتى هذه الأخيرة تعاني، كما يشير المؤلف، شبه انعدام الاختبارات المنهجية التي تثبت فعاليتها للتفسير، وغموض الموضوع الذي يعالجها (ص ٧٧).

ومع ذلك، يغامر المؤلف في الفصلين الثاني والثالث باعتبار مباحث اجتماعية وأنثروبولوجية امتداداً للمؤلفات الكلاسيكية بشأن نظرية الإعلام-الاتصال^(٢)، فيذكر في الفصل الثاني تيار الاقتصاد السياسي الذي يهدف في «الأساس إلى توضيح الوظيفة التي يقوم بها الاتصال من أجل تلبية حاجات الرأسمال» (ص ٤١)، والمدرسة الأنثروبولوجية في تحليل التواصل، ثم مدارس العلوم الاجتماعية المختلفة، والتيار الثقافي، مع أن هؤلاء جميعاً لم يكونوا معنيين بتشييد نظريات عامة حول الإعلام، فالدراسات الاجتماعية والإنسانية كانت دائمة الانشغال بالتواصل بين البشر في سياق محاولاتها لفهم المجتمع.

يبدو مبيح في فصول الكتاب الثلاثة منخرطاً بشدة في تقاليد المدرسة الفرنسية المحدثة، حيث الإغراق في النظرية والمنهج يفوق في أهميته الحديث عن الظاهرة المدرسية. لذلك، ينطلق المؤلف من أرضية تسلّم بوجود نظرية إعلام، ولا يتساءل عمّا إذا كان هنالك قبل ذلك نظرية للإعلام (أو نظرية في الإعلام)، فالإعلام مثل غيره هو ظاهرة اجتماعية تعبر في النهاية عن مجرى علاقات السلطة داخل مجتمع، وصراع القوى على فوائض الإنتاج المادية والرمزية.

إن أهمّ ما يميّز هذا العمل، هو إقراره في الفصل

الذي انبثق من أعمال ليفي ستراوس وغيره (حيث لا يوضح المؤلف علاقته الخصوصية بموضوع الإعلام)، فإن التيار المؤسس والمهتم بمتغيرات وسائل الاتصال كان أداتياً، يروم البحث عن آثار الإعلام في الذوات الاجتماعية (مرسل - وسيط - متلقٌ)، ثم يقدم تغذية راجعة إلى علاقات السلطة بوصفها المستحوذ على الأجهزة الإعلامية، وذلك منطلقاً من سلبية المتلقٍ. هكذا يتم بوساطة سلطة الميديا «الدفع بالأفراد المستعدين بشكل قبلي للتعبير عن آراء الأقلية أو عن آراء غير شعبية إلى الإحجام عن القيام بذلك مخافة عزلهم اجتماعياً» (ص ٢٨).

لذلك، عرض المؤلف مساهمات التيار النقدي الذي قاده تلاميذ مدرسة فرانكفورت التي ساهمت، في رأينا، في اضمحلال الحديث عن الاتصال بوصفه حقلًا علمياً منفرداً بحد ذاته. هكذا برع اكتشاف جوزيف كلابر (J. Clapper) وغيره، فالاتصال الجماهيري ليس سبباً ضرورياً وكافياً للتأثير في جمهور الوسائل، فهو يستغل بالأحرى بواسطة تضافر مجموعة من العوامل الوسيطة؛ فالرسالة الإعلامية تمرّ بمراحل من التصفية من خلال اختيارات المتلقٍ، والمجموعات التي يعيش فيها، والاتصال بين الأفراد و«موّجهي الرأي» (ص ٢٧)، كما هو شأن بالنسبة إلى «الخيرات المعروضة للاستهلاك، حيث يترك نوع من المبادرة للمستعملين - المستهلكين ما إن يكون العرض وافراً» (ص ٢٩). وباختصار، فإن الثقافة الجماهيرية هي «نسق خاص يوجد في علاقة مع المجتمع والتاريخ، وليس كأثر للوسائل الجماهيرية» (ص ٣٤).

إذًا، ما يمكن استنتاجه من الفصل الأول هو موت فكرة تحويل الإعلام إلى حقل علمي منفرد منذ ولادتها، وانحصر نظرياتها التي لم يبق منها سوى أطروحة مارشال ماكلوهان، حيث «إن الواقع

التي تروم البحث عن استقلالية حقل معرفي معين عن التراكم المعرفي الذي أتجهته العلوم الاجتماعية والإنسانية. وكما أشار مييج في الفصل الثالث، فإن تطور البنى الاجتماعية جاء مخالفًا للتوقعات التي أعلنتها الدراسات الإعلامية منذ عقود (ص ٨٤)، فالميديا في نهاية المطاف هي أُسيرة «الراهني»، والمعلومة التي تشكل رصيد الوسيلة الإعلامية هي «آئية»، بينما تحكم في البنى الاجتماعية شروط اجتماعية ضارة في التاريخ.

الفوامش

١ Richard Wasson, Marshall McLuhan and the Politics of Modernism, *The Massachusetts Review*, Vol. 13, No. 4 (Autumn, 1972), (567-580), p.573.

٢ يصرّ بيرنار مييج على مدار كتابه على وضع عالمة الشرطة (-) بين «الإعلام» و«الاتصال»، مع أن الاتصال هو موضوع شديد العمومية اهتمَ به كثير من المقول المعرفية، أكانت سوسنولوجية أم أنثربولوجية أم حتى لسانية بحثة.

الثالث التناقض الأهم الذي وقع فيه أغلب المساهمين بنظريات الإعلام الحديثة (ابتداءً من ماكلوهان وانتهاءً بريجيس دوبريه)، التي ميّزت بين نمطين من الإنتاج، الأول هو الرأسمالي الصناعي، والثاني هو الإعلامي (الموصوف أحياناً بها بعد الصناعي). ومع ذلك، فهي لا تهتم إلا بالنمط الثاني، ولا تبحث في التفكير في التمفصل بين الواحد والآخر، فلا يصبح مفهوماً «كيف يمكن لتشغيل التقنيات أن يكون مفصولاً عن نمط الإنتاج الذي يعيدها، وموجاً نحو استعمالات متباينة» (ص ٨٥)، ونحن نذهب أبعد من ذلك لنقول إنه لا يوجد في الأصل نمط إنتاج إعلاميٌ بل يوجد أجهزة إعلامية فاعلة ومنفعلة بظرف كل مجتمع من المجتمعات، وخلف هذه الأجهزة قوى اجتماعية مستفيدة من اقتصاد الخدمات الذي هو بالأصل نتوء من نتوءات اقتصاد الرأسمالية. هذا الكتاب إذاً هو مثال مهم لارتباك المحاوالت

العدد السابع



مجلة omran للعلوم الاجتماعية والإنسانية

العدد ٧ - المجلد الثاني - شتاء ٢٠١٤

محور العدد: ممارسة أنظمة المراقبة في الوطن العربي (٢)

- دور معاهدات السلام والتجارة في التحكيم في المجال التجاري ومراقبة التجار في الحوض الغربي للمتوسط في العصر الوسيط
- السياسات الحيوية الإسرائيلية: الأغلاق والتأريض والتحكم في الأرضي الفلسطينية المحتلة
- الاحتلال الرقمي الإسرائيلي لغزة
- الإحصاء والبحث الاجتماعي في الأرض المحتلة ١٩٦٧: الأثر الاستعماري وتشظية المجتمع الفلسطيني
- السياسي والسوسيولوجي في الفضاء العربي: صراع الرقابة وتحولات العلاقة

دراسات
مناقشات
مراجعات

العدد
في
هذا
إقرأ

